الشعراء :

ابو الطيب المتنبي

٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ

لم يحظ شاعر من شعراء العرب بالاهتمام والدراسة قديماً وحديثاً بقدر ما حظي به ابو الطيب المتنبي . ولعلّ شهرته في مملكة الشعر جاءت من جودة نظمه الذي يُسحر القاريء ويجعله منقاداً له في رضىً واعجاب . يُضاف الى ذلك ، أنّهُ ينطقُ عن خواطر الناس ، كما قال القاضي الفاضل .(٨٨٣)

سيرته :

أبو الطيب احمد بن الحسين بن مُرّة بن عبدالجبار الجُعفي الكندي الكوفي . أو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجُعفي الكندي الكوفي .(٨٨٤) وجُعفي الذي ينسب اليه هو جُعفي بن سعد العشيرة من مُذْبح من كهلان من قحطان . فهو من أصل عربي قحطاني . خالص النسب أباً وأماً .

فتح ابو الطيب عينيه على الدنيا سنة ٣٠٣ للهجرة في حي كندة بالكوفة . وهو حيٌّ نزله المهاجرون من العرب الذين نزحوا ايام الفتوح الى هذه البقاع . وهم من أصل يماني فسموا منازلهم الجديدة بأسماء منازلهم الاولى للذكرى والحنين .(٨٨٥) وظنّ من لاتحقيق إعنده أن المتنبي من قبيلة كندة . وفي شعره ذكريات في هذا الحي وكان مفارقا له . قال يحنّ اليه :

أمُنيّ السُّكونَ وحَضْرَموتا ووالدتي وكندة والسُّبيعا (٨٨٦)

كان المتنبي فقير المنشأ . قيل ان أباه كان يسمى عيداناً . وكان سقّاء بالكوفة يستقي على بعير له . وفقدَ هذا الأبُ المعينَ على بؤس الحياة . ولا نعرف شيئاً عن والدته . ولعلها ماتت في حداثته . ولكن جدّته لأمه وهي عربية هَمْدانية كانت من النساء الصالحات سهرتْ على تربيته وتنشئته والاحتفاء به .

---

(٨٨٣) الوفي المرقوم ص ٥٧

(٨٨٤) وفيات الاعيان ١ : ١٢٠

(٨٨٥) المتنبي للدكتور زكي المحاسني ص ٢٢

(٨٨٦) شرح ديوان المتنبي ١ : ٤٢٢ ، والاسماء المذكورة في البيت هي أماكن في الكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا يسكنونها

تعلم القراءة والكتابة في الكُتّاب . ولازم دكاكين الورّاقين وقرأ كثيراً من الكتب التي كانت تأتي اليها ، وحضر حلقات العلماء والادباء . ولم تذكر المصادر الاساتذة الذين تتلمذ على إيديهم . وهذا مادفع طه حسين الى القول : « ان المتنبي قد نشأ في غير مدرسة . وتعلّم على غير معلم . ولم يأخذ ثقافته عن الاساتذة والنقّاد . وانما اخذها عن الكتب والصحف »(٨٨٧) وتردّدَ على البادية ووقف على اللغة الفصحى ، وتمرّس بالفروسية وفنون الحرب وضروبها .

زار بغداد وهو في ريعان الشباب . ووقف على معالمها . وشاهد الاعاجم وتنازعهم على السلطة . ورأى تضارب الآراء بين الناس . والخلافة غير قادرة على فرض هيبتها وهيمنتها . وقد آلمه ذلك وأحزنه . وأخذ يتنقل بين المدن . وزار الشام ورأها ليست بأحسن حال من العراق .

كان المتنبي كبير النفس . بعيد الهمة . ناقماً على أولئك الذين حكموا ديار العرب من غير أهلها . ثائراً في نفسه عليهم . وقد أراد أن يُحقق هذه الثورة . فاتصل بقبائل عربية في البادية . ودعا رجالاً منهم الى بيعته . فاستجابوا له . وخرج الى أرض سلمية من عمل حمص ليعلن ثورته . فلم يكد يُعلنها حتى أخذه لؤلؤ الغوري والتي الإخشيد على حمص وألقاه في غياهب السجن . وتلقّى الحبس متمسكاً بكبريائه وأنفته ونفسه العالية قائلاً :(٨٨٨)

كُنْ أيُها السِجنُ كيف شئتَ فقد وطّنتُ للموتِ نفسَ مُعترفِ
لو كان سُكناي فيكَ منقصةً لم يكن الدرُّ ساكن الصَّدَف

إنّ روحه الوثّابة استكانتْ بعد أن ذاق مرارة الوحشة والغربة والجوع . وأوهن رجليه ثقلُ الحديد . وأخذَ يستعطفُ الحاكم أن يعفو عن ذنبٍ نواهُ ولم يفعله كما في قوله :(٨٨٩)

---

(٨٨٧) مع المتنبي ص ١١٣
(٨٨٨) شرح ديوان المتنبي ١ : ٤٣٩ .
(٨٨٩) نفسه ١ : ٢١٩ .

دعوتك عند انقطاع الرجا ... ءِ والموتُ مني كحبل الوريد
دعوتك لما برانيَ البلاءُ ... وأوهنَ رجليَّ ثقلُ الحديد
فمالكَ تقبلُ زورَ الكلامِ ... وقد رُدَّ شهادةَ العُهود
فلا تسمعنَّ من الكاشحين ... ولا تعبأنَّ بمحكِ اليهود
وكُنْ فارقاً بين دعوىً أردتُ ... ودعوى فعلتَ بشأوٍ بعيد

رقَّ قلب الحاكم عليه . وفكَّ أسره . وأطلقَ سراحه . فهام على وجهه يجوب الديار وهو قلق كأنما يترصُّدهُ المترصدون . وقد عَبَّرَ عن حاله بقوله :(٨٩٠)

أواناً في بيوت البدوِ رحلي ... وآونةً على قَتَبِ البعيرِ(٨٩١)
أعرِّضُ للرِّماح الصُّمِّ نحري ... وأنصِبُ حرَّ وجهي للهجيرِ
وأسري في ظلام اللَّيلِ وحدي ... كأنيَ منه في قمرٍ منيرِ

وتختلف الأخبار في مسألة نبوته . منها ما يؤكدها . ويؤكد ادعاءه بعض المعجزات . وقد روى المعريُّ بعض أخباره تلك(٨٩٢) وقيل إنه لم ير حرجاً أن يشبه نفسه بالأنبياء . مثل قوله في أول شبابه :(٨٩٣)

عامَ مقامي بأرض نخـ ... ـلةَ الاَّ كمقامِ المسيح بين اليهود(٨٩٤)
أنا في أمَّةٍ تداركها اللـ ... ـهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمود

والممعن في هذين البيتين لا يرى فيهما دعوةً الى النبوة . وانما يرى أنه يشبه نفسه وهو مقيم بين قوم يعتقد أنهم أعداؤه بالمسيح عليه السلام حين أقام بين اليهود . ويشبه غربته في قوم لاتجانسَ بينه وبينهم بغربة صالح عليه السلام الذي كان يعيش بين قوم لا يرونَ رأيه وهم ثمود .(٨٩٥)

---

(٨٩٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٣٤٨ .
(٨٩١) الرحل : مايستصحبه الرجل من الأثاث . والقتد : خشب الرحل .
(٨٩٢) رسالة الغفران ص ٤٢٣ .
(٨٩٣) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٠٦ .
(٨٩٤) نخلة : قرية لبني كلب قرب بعلبك .
(٨٩٥) ينظر : أبو الطيب المتنبي وماله وما عليه ص ٩ .

إن هذا اللقب « المتنبي » جاء من خصومه وحاسديه . وبقي مشتهراً به . وقد نفى عن نفسه تهمة النبوة ولم يرضَ بها[٨٩٦] . أما من ذهب الى أنه من « النُّبوة والنُّباوة » أي المرتفع فلعل فيه شيئاً من الصحة . اذ كان معجباً بشجاعته وأدبه وآرائه التي دفعته الى الثورة وألقته في السجن . وقد تجاوز في شعره كلَّ حدٍ ممكن . من ذلك ما . قاله في صباه ارتجالاً :[٨٩٧]

أيُّ مـحـلٍ أرتـقـي ... أيُّ عـظـيـمٍ أتَّـقـى
وكـلُّ ماقد خـلـقَ الـلـ ... ـهُ وما لـم يَـخـلـقِ
مـحـتـقـرٌ في هـمـتـي ... كـشـعـرة في مـفـرقـي

مضى بعد خروجه من السجن الى شمال الشام . وليس له قرار . يقاسي الضرَّ وسوء الحال . واضعاً شعره بين أيدي الممدوحين .[٨٩٨] أمثال بدر بن عمار الأسدي نائب ابن رائق في طبرية . ومساور بن محمد والي حلب . وسعيد بن عبيد الكلابي . والحسين بن عبيد الله من طفج . وعلى بن ابراهيم التنوخي . ومحمد بن زربق الطرسوسي وسواهم . وقد عبَّرَ عن حاله بقوله :[٨٩٩]

الى كم ذا التخلُّفُ والتَّواني ؟ ... وكم هذا التَّمادي في التَّمادي ؟
وشُغْلُ النفس عن طلب المعالى ... ببيع الشِّعر في سُوقِ الكسادِ

ويشعر بالغربة ويعصره الألم . بعدما رأى نفسه ـ وهو صاحب الهمة والعبقرية ـ مهانةً بين أناس ساقتهم حظوظهم الى اعتلاء المناصب والتحكم في رقاب الناس . ونظم قصيدته الميمية المشهورة التي صبَّ فيها مايدور في صدره من هم . وأبانَ عن الواقع المرير الذي انتاب الأمة آنذاك . وأولها[٩٠٠]

فؤاد ماتُسَلِّيه المدامُ ... وعمرٌ مثلُ ماتَهَبُ اللِّئامُ .
ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ... وإنْ كانتْ لهم جثثٌ ضخامُ

---

(٨٩٦) ينظر : الشعر في رحاب سيف الدولة ص ٦٥ .
(٨٩٧) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٨٣ .
(٨٩٨) مدح في هذه الفترة اثنين وثلاثين رجلاً بأربع وأربعين قصيدة .
(٨٩٩) شرح ديوان المتنبي ١ : ٣٢٥ .
(٩٠٠) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٣٨ .

أرانبه غير أنهم ملوكٌ . مفتحة عيونهم نيامُ
بأجسام يخرُّ القتل فيها وما أقرانها إلاّ الطعامُ(٩٠١)

إلتجأ الى أبي العشائر الحمداني والي انطاكية من قبل سيف الدولة حاملاً معه همومه ومدحه بقصدتين وثماني مقطوعات . وعرف هذا الوالي منزلته العالية وقدرته الفائقة في نظم الشعر . فأكرمه وأنزله مقاماً محموداً . وحينما ورد سيفُ الدولة علي ابن حمدان الى أنطاكية سنة ٣٣٧ للهجرة قدّم أبو العشائر اليه المتنبي وأثنى عليه وعلى شعره. ولما سمع سيف الدولة ـ وهو شاعرٌ أيضاً ـ شيئاً من شعره راق له وأعجبه وحكم له بالجودة والتقدّم . واصطحبه الى حلب وارتضى بشروطه :(٩٠٢) لايمانه بشاعريته الممتازة وعبقريته الفذّه . ونباهته الفريدة التي ستُعلي شأنه وتخلده .

وجد المتنبي في هذا الأمير العربي الغيور تجسيداً لآماله وأحلامه وطموحاته فأقام في رحابه معززاً مكرماً أكثر من تسعة اعوام. خصّهُ بغرر شعره الذي بلغ (٣٨) قصيدة و (٤١) مقطوعة . وفاز بجوائزه السنية التي لم يفز بها شاعر آخر . وقد أقرّ بذلك في شعره مثل قوله :(٩٠٣)

تركتُ السُرى خلفي لِمَنْ قلّ مالهُ وأنعلتُ أفراسي بنعماكَ عَسْجدا
وقيدتُ نفسي في ذراك محبّةً ومَنْ وجدَ الاحسانَ قيداً تقيّدا

كان مجلس سيف الدولة محفلاً علمياً وأدبياً . ضمّ خيرة أرباب القلم آنذاك . أمثال أبي فراس الحمداني وأبي الفرج الببغاء . وأبي عبدالله الخليع . والوأواء الدمشقي، وأبي بكر وأبي عثمان الخالديين. والسري الرفّاء. وابن نُباته السعدي. وأبي بكر الصنوبري . وأبي العباس النامي . وابن خالويه . وأبي الطيب اللغوي . وأبي الفتح بن جني . وأبي علي النحوي . والفارابي . وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني ... وفي خضم هذا المحفل كان المتنبي يحتلُ الصدارة ويحملُ لواء الامارة في الشعر وينالُ مالا يناله الآخرون من الامير . وقد شقّ على الادباء هذا الموقف

---

(٩٠١) باجسام أي مع أجسام ، يعر يشتد ، يقول ، انهم لايحفلون إلاّ بالمآكل ومن ثم يموتون بالتخمة من كثرة الأكل لا في وقائع الحروب .

(٩٠٢) قيل ان المتنبي اشترط على سيف الدولة أن لاينشده واقفاً حاسر الرأس ، بل يجلس اذا كان الأمير جالساً ، ويقف اذا كان واقفاً ويركب اذا كان راكباً .

(٩٠٣) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٩٤ .

فحسدوه . وناصبوه العداء وبيتوا له المكائد . وأخذ بعضهم يُقلل من شأنه عند سيف الدولة ويُوغر صدره عليه . حتى ان هذا الأمير لم ينتصف له حينما ضربه في مجلسه ابن خالويه بالمفتاح وشجَّ رأسه وأسال دمهُ على وجهه وثيابه بعد مشادة حادة في مسألة لغوية .(٩٠٤)

لقد أحسَّ بضعف مركزه في بلاط سيف الدولة لذلك قَرَرَ الانصراف عنه والرحيل الى بلد آخر . وكانت آخر قصيدة له في هذا الأمير سنة ٣٤٥ للهجرة ومطلعها :(٩٠٥)

عُقْبى اليمينِ على عُقْبَى الوغى ندمٌ ماذا يزيدُك في إقدامك القسمُ

غادر حلب الى دمشق بنفس مكلومة وقلب جريح . ومنها ارتحل الى الفسطاط . وحلَّ في دار الإمارة . وماكاد يرى كافوراً حتى اشمأزت نفسه . وانتابته آلام وهموم . ظهرت بوادرها في مقدمة قصيدته الأولى التي مدح بها هذا الأمير الجديد :(٩٠٦)

كفى بك داءً أنْ ترى الموت شافياً وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا
تمنيتها لمَّا تمنيت أنْ ترى صديقاً فأعيا أوعدواً مُداجيا

إنه يعجز في ايجاد الصديق المصافي والعدو المجافي . ويدفعه الزمن الخؤون الى رجل مامن مصاحبته بدٌ . ونراه يظهر ألمه جلياً حينما يدخل على كافور ويراه قبيحاً وقد لبس نعلاً لم يَخف مابرجليه من شُقوق . فيهجوه بأبيات يكتمها على وزن وقافية القصيدة السابقة أولها :(٩٠٧)

أريك الرِّضا لو أخفتِ النَّفسُ خافياً وما أنا عن نفسي ولاعنك راضيا

ويلمح بأولئك الذين فرطوا به وألجاوه الى رجل هو أجدر بالهجاء من المدح :

ولولا فُضُول الناس جئتك مادحاً بما كنتُ في سرّي به لك هاجيا
فأصبحتَ مسروراً بما أنا مُنْشِدٌ وإن كان بالانشادِ هجوُك غاليا

كان المتنبي يطمح في ولاية عند كافور الاخشيدي . وقد لمح بذلك في شعره . ثم آل هذا التلميح الى التصريح مثل قوله :(٩٠٨)

---

(٩٠٤) ينظر الصبح المنبي ص ٨٧ .
(٩٠٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٩٤ .
(٩٠٦) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٥٠٩
(٩٠٧) نفسه ٢ : ٥٢٠ .
(٩٠٨) نفسه ١ : ١٣٧ .

أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أنالُهُ؟ فإني أغنّي منذ حين وتشربُ
وهبتَ على مقدار كفّيْ زمانِنا ونفسي على مقدار كفيك تطلبُ
إذا لم تنَطْ بي ضيعةً أو ولاية فجودُك يكسوني وشُغْلُك يَسْلُبُ

تغاضى عنه كافور ولم يحقق مطالبه . وقال لبعض بطانته : هو في الفقر وعدم العون سمت به نفسه الى النبوة فكيف يكون أمره اذا أصاب الولاية (٩٠٩) ؟

ضاقت نفسه في مصر بعد أن أخفق في الوصول الى مراده . وقد أمضى فيها أربعة أعوام وستة أشهر . مدح فيها كافوراً بتسع قصائد ومقطوعتين . وعزم على الرحيل . واستاذن كافوراً في ذلك . فلم يأذن له . ووضع عليه الرَّصَدَ . ونشر حوله العيون : لأنه كان يعلم أنَّ وراء هروبه هجاءً حاداً . وحصل الذي كان يتوقعه كافورا . إذ هرب المتنبي سراً وفي غفلة منه في ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ للهجرة متوجهاً نحو مسقط رأسه الكوفة . وقد حاول كافور الظفر به . فلم يفلح ولم ينج من لسانه . اذ هُجي بقصيدة تتوشحُ بالسُّخطِ والكُره . أولها : (٩١٠)

عيدٌ بأيةِ حالٍ عُدْتَ ياعيدُ بما مضى أم بأمرٍ فيكَ تجديدُ
أما الأحبّةُ فالبيداءُ دونهمُ فليت دونك بيداً دونها بيدُ

وفيها يشكو ما أصابه من ضر وقهر في رحلته الى مصر :

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبه إني بما أنا باكٍ منه محسود
أمسيتُ أرْوَحَ مُثرٍ خازناً ويداً أنا الغنيُّ وأموالي المواعيدُ
إنّي نزلتُ بكذّابين ضيفهمُ عن القِرى وعن الترحال محدودُ
جودُ الرّجالِ من الأيدي وجودهمُ من اللسان فلاكانوا ولا الجودُ

وصل الكوفة منزله الأول سنة ٣٥١ للهجرة بعد فراقٍ طويل دام ستة عشر عاماً . وأقام فيها . ثم زار بغداد ليرى ما حلَّ بها بعد أن تقاسم الأعاجمُ المكاسبَ والمغانمَ فيها . وكان ذلك زمن معز الدولة البويهي ووزيره الحسن بن محمد المعروف بالمهلبي . وقد نقم هذا الوزيرُ منه بعد أن يئس أن يسمع قصيدةً في مدحه . وألبَ عليه الشعراء الهجائين مثل ابن حجاج وابن لنكك البصري . وحرّض عليه من

(٩٠٩) المغرب في حلى المغرب (قسم مصر) ص ٢٠٠ ، وينظر : الواضح في مشكلات شعر المتنبي ص ١٠ ، وخزانة الادب للبغدادي ٢ : ٢٥١ ، وكافوريات المتنبي ص ١٦٦ ـ ١٦٢ .
(٩١٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٣٧٠ .

الأدباء اللغويين أبا علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي .(٩١١) . ولكن المتنبي كالصخرة الصماء لم يكترث بهم ولم يلتفتْ إليهم . وقيل له في ذلك . فقال :(٩١٢)

واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادةُ لي بأنّي كاملُ

وعاد الى الكوفه مسرعاً على ما أصاب الأمة من ظلم وتعسُّف . وجاءه في سنة ٣٥٢ للهجرة رسولٌ من سيف الدولة ومعه هديةً يطلب منه العودة الى حلب . فقبل الهدية ومدحه بقصيدة دعاه فيها الى الانقضاض على حكام بغداد المستعجمين . منها قوله :(٩١٣)

أنت طول الحياة للروم غازٍ فمتى الوعد أنْ يكون القفولُ ؟
وسوى الرُّوم خلف ظهرك رومٌ فعلى أي جانبيك تميلُ (٩١٤)

لم يُشِرْ الى العودة الى حلب . وكأنّ نفسه الأبية لم تأذن له بذلك . وأكبر الظن أنه كان لايزال يذكر صنيع الوشاة والكائدين من حول الأمير الحمداني .(٩١٥) . بدليل قوله في مطلع قصيدة بعث بها الى هذا الأمير جواباً على رسالة أخرى جاءته منه سنة ٣٥٣ للهجرة يسأله فيها المسير إليه :(٩١٦)

فهمتُ الكتاب أبرَّ الكتبْ فسمْعاً لأمر أمير العربْ
وطوعاً له وابتهاجاً به وإن قصّر عمّا وجبْ
وماعاقني غيرُ خوف الوشاة وأنّ الوشايات طُرْقُ الكذب

---

(٩١١) له ثلاثة مصنفات في نقد المتنبي ، الأول : المحاظبة في إذاع المتنبي ، احتفظ لنابها ياقوت في معجم الأدباء . الثاني : الرسالة الحاتمية وهي مطبوعة . الثالث : الموضحة ، وهي مطبوعة .

(٩١٢) شرح ديوان المتنبي ٢ : ١٨٤ .

(٩١٣) نفسه ٢ : ١١٨ .

(٩١٤) أي ان خلف ظهرك روماً سوى الروم ـ يريد آل بويه ـ أي أن هناك أعداء لك كالروم فليس أعداؤك الروم حسب وانما أعداؤك كثير فايهم تقاتل ؟

(٩١٥) ينظر فصول في الشعر ونقده ص ١٠٣ .

(٩١٦) شرح ديوان المتنبي ١ : ٦٩ .

ووصل إليه في أواخر سنة ٣٥٣ للهجرة كتاب من ابن العميد وزير عضد الدولة يدعوه فيها لزيارة « أرجان » . فارتحل اليه لأول سنة ٣٥٤ للهجرة . ووجد عنده إكراماً بالغاً وتقديراً فائقاً ومدحه بأربع قصائد .

وكان الصاحب بن عباد يطمح في زيارة المتنبي إياه ليحظى بمديحه . وكتب إليه يلاطفه ويحبب اليه السفر الى « أصبهان » . ولكن المتنبي لم يُجبه . فكان ذلك سبب عداوة الصاحب له والطعن فيه وتاليف رسالة بعنوان « الكشف عن مساوىء شعر المتنبي »(٩١٧) . ودعاه عضد الدولة وهو في « شيراز » . ولبّى الدعوة . ولقي حفاوة كبيرة ومالاً وفيراً قُدّر بأكثر من مئتي ألف درهم . ونظم في مدحه ثماني قصائد . ثم استأذن بالعودة الى العراق . فأذن له وسار بمواكبه وأحماله الى الأهواز ثم واسط . وفي طريقه الى بغداد خرج عليه فاتك بن أبي جهل الاسدي . وهو ابن اخت ضبّة الكلابي القرمطي الذي نال المتنبي من عرضه بهجائه المقذع . وعرض له بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية شرقي نهر دجلة على نحو ستة عشر فرسخاً من بغداد . وكان مع المتنبي ابنه مُحسّد وغلامه مفلح . ووقع بينهم شيء من قتال . وأخيراً قتل المتنبي وابنه وغلامه . وكان ذلك لليلتين بقيتا من شـــهر رمضان سنة ٣٥٤ للهجرة(٩١٨)

الأغراض التي عالجها :

نطق المتنبي بالشعر منذُ صباه ورافقه . وماسلاه الى زمن انقضاء أجله عبّر به خير تعبير عن حياته الخاصة . ومكابداته . وتطلعاته . ومشاهداته في الديار التي زارها وأقام طويلاً فيها . والتي مرّ بها ومكث فيها قليلاً . وأحداث عصره . وخواطره التي تموج بها نفسه . وآرائه التي جاءت ثمرة لتجاربه .

مديحه :

برع المتنبي في المديح براعة فائقة . وأجاد فيه أيما إجاده . بلغ فيه شأواً بعيداً في حسن ديباجته . ولطافة صياغته . وجمال عرضه . وقد تسابق الملوك والامراء الى اكتسابه ونيله . لانه يرفع من شانهم . ويخلّدهم خلود الدهر .

---

(٩١٧) طبع الكتاب في بغداد بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين سنة ١٩٦٥ .

(٩١٨) ينظر تفاصيل مقتله في كتاب ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ص ٣٥٠ ـ ٣٦٨ .

إن القسم الأكبر من مدائحه كان في الامير العربي الشهم سيف الدولة الحمداني فهو معجب به اعجاباً لاحد له . لذلك جاء مديحه فيه صادقاً منبعثاً من أعماق فؤاده . اذ يقول له :(٩١٩)

وماقِسْتُ كلُّ ملوك الأرضِ فدعْ ذكرَ بعض بمن في حَلَبْ
ولو كنتُ سميتُهم باسمِهِ لكان الحديد وكانوا الخشبْ
أفي الرأي يُشْبَهُ ام في السخا ء أم في الشُجاعةِ أم في الأدبْ
مباركُ الاسم أغرّ اللقبْ كريمُ الجرشي شريف النسبْ(٩٢٠)
أخو الحربِ يُندمُ مما سَبَى قناهُ ويخلعُ مما سَلَبْ

لقد دفعه هذا الاعجابُ الى الغلو والمبالغة . فها هو ذا يجعله أعظم ملوك الأرضِ نباهةً ورجاحةً وشجاعةً :(٩٢١)

تجاوزت مقدار الشَّجاعة والنُهى الى قول قومٍ أنتَ بالغيب عالمُ

ومثل قوله :(٩٢٢)

فتى الخيلِ قد بلَّ النجيعُ نحورها يطاعنُ في ضَنْكِ المُقامِ عصيبِ
يعافُ خيامَ الرَّبطِ في غزواته فما خيمُهُ إلاّ غبارُ حروبِ

إنَّ بطله شجاع همام . ثابت طعّان في المآزق الصعبة . محارب صنديد في المواقف الشديدة . لايخشى الرّدى ولايهاب العِدى . كأنه في جفن الموت . والموت غافل عنه لايراه :(٩٢٣)

وقفت وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنّك في جفنِ الرّدى وهو نائمُ
تمرُّ بك الابطالُ كلمى هزيمةً ووجهُك وضاحٌ وثغرك باسمُ

إنَّ صورة بطلهِ مشرقة بهية دائما ، وقد أخذت هذه الصورة جهداً كبيراً منه واستغرقت قسماً ضخماً من شعره . مما يدلُّ على أنَّ هذه الصفة قد استولتْ على

---

(٩١٩) شرح ديوان المتنبي ١ : ٧١ .
(٩٢٠) كريم الجرشي : أي النفس .
(٩٢١) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٧٥ .
(٩٢٢) نفسه ١ : ٢٨ .
(٩٢٣) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٧٣ .

قلبه . وحازتْ معظم إعجابه . عندما رأى أمير حلب يقفُ كل جهوده لدفاع الروم عن بلاد الاسلام . وردّ هجمات المغيرين عن تلك الأرض العزيزة من أرض الوطن العربي الكبير »(٩٢٤)

ويعدّ بدر بن عمار حاكم طبرية من قبل الإخشيديين الشخصية العربية الثانية التي حظيت بمديح الشاعر . إذ أحبّ المتنبي هذه الشخصية التي عُرفتْ بالشهامة والجود والشجاعة مثل قوله :(٩٢٥)

يابدرُ يابـــحرُ . ياغـــمامةُ . يا ليثَ الشرى . ياحِمامُ . يارَجُلْ .
إنّ الـــبنانَ الذي تـــقـــلـــبُـــه عـــندك في كـــلّ موضـــعٍ فـــشـــلْ
أنتَ نقيضٌ اسمه اذا اختلفتْ قواضـــبُ الـــهـــندِ والـــقـــنا الذُبُـــلْ
أنتَ لعمري البدرُ المنير ولـ كنك في حومه الوغى زُحَلْ
مـــثـــلـــك يابدرُ لايـــكونُ ولا تـــصـــلـــحُ إلّا لِمثـــلـــكَ الدُولْ

وثمة أسماء كثيرة في ديوانه لهم مدائح تتراح بين الكثرة والقلة . أمثال أبي العشائر الحمداني . والحسن بن طُغج . وعضد الدولة . وكافور الاخشيدي . وابن العميد . وأبي شجاع فاتك . والمغيث بن علي العجلي . وعبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي وسواهم . ولكن أكثر مايستجلب انتباه القاريء من هؤلاء الممدوحين هو كافور بن عبدالله الاخشيدي صاحب مصر والشام والثغور والحرمين . اذ جاءه المتنبي مُغاضباً لسيف الدولة وقدّم بين يديه عدة قصائد بلغ عدد أبياتها سبعة وستين وثلاث مئة بيت ظاهرها مديح ـ كما يرى كثير من الدارسين ـ وباطنها هجاء . ولعل اكثر هذه القصائد اثارةً التي يقول في أولها :(٩٢٦) .

أغالبُ فيكَ الشوق والشوق أغلبُ وأعجبُ مِن ذا الهجرِ والوصلُ أعجبُ
أما تَغْلطُ الأيامُ فيَّ بأنْ أرى بغيضاً تُنائي أوْ حبيباً تُقرّبُ

إنه مطلع غريب . ولاندري كيف سكت كافور وصبر عليه ؟ ! فهو يغالب الحنين والحنين يغلبه . ويعجب من هجر كافور . ولكن وصله أعجب . ويتساءل : أفلا يغلط الدهر مرّة فيبعد البغيض ويدني الحبيب ؟ إنه في الغالب أراد بالبغيض كافوراً وبالحبيب سيف الدولة . ويقول في القصيدة نفسها :

---

(٩٢٤) من النقد والادب للدكتور أحمد أحمد بدوي ، المجموعة الرابعة ص ١٠ .
(٩٢٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ١٥٤ .
(٩٢٦) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٣٣

ويُغنيك عما يُنسَبُ الناسُ أنّه اليك تناهى المكرماتُ وتنسبُ
وأيّ قبيلٍ يستحقُّك قدرَهُ معدُّ بنُ عدنانٍ فداكَ ويَعرُبُ
وماطربي لمّا رأيتك بدعةً لقد كنت أرجو أن أراك فأطربُ
وتعذلُني فيك القوافي وهمتي كأنّي بمدحٍ قبلَ مدحِك مذنبُ
ولكنّه طالَ الطريقُ ولم أزلْ أفتشُ عن هذا الكلام ويُنهبُ

لقد كان ذكياً في جعل شعره يدور في معينين ظاهر وباطن . فهو « يمدحه ظاهراً بأنه غني عما ينسب الناس بما يتناهى إليه من المكرمات وما ينتسب به اليها، وهو هجو صريح وغمز واضح لأنه أشبه بنفي النسب عنه . ويمعن في السخرية منه إذ يصوره لنفسه أعلى من كل قبيل . حتى إنه ليس هناك من القبائل من تستحق أن يشرف بانتسابه إليها ويجعل معد بن عدنان ويعرب فداء له . وقد ذكر أبو الطيب أن هذا القول لو قلب لكان هجاء . ويعود الى المعنى الذي طرقه من قبل عن طربه وبهجته عندما راه . فيصور وكأنه قرد يأتي من الحركات ما يبعث الطرب في النفوس . حتى ان ابن جني عندما قرأ هذا البيت على أبي الطيب قال له : ما زدت عن أن حتى ان ابن جني عندما قرأ هذا البيت على أبي الطيب قال له : مازدت عن أن جعلت الرجل أبازنة ـ وهي كنية القرد ـ فضحك . ويعمد الى إهانته بتجسيم القوافي وهمته شخوصاً تتيه على كافور وتتلوم الشاعر على انحداره الى مدحه ولكنه يستتم البيت بما يغطي هذه الاهانة المرة كما لاحظ الواحدي الذي ذكر أن المصراع الأول هجاء صريح لولا الثاني . ويفصح عن ضجره مموهاً بأنه انما يتحدث عن الماضي معلناً أنّ الطريق قد طال وأن شعره دون مكافاته التي ينتظرها ينهب منه نهباً دون وجه حق . وينتهي الى الفخر عليه بسيرورة شعره وذيوعه مهدداً بأن لاشيء يمكن أن يعوق وصوله الى أقصى الشرق وأقصى الغرب سواء في البدو أم في الحضر »(٩٢٧)

إنّ مدائحه في جملتها رصينة وقوية كأنها سلاسل تأخذ بعضها برقاب بعض . تتقدّمها افتتاحيات مناسبة . وهي في الغالب تتحدّث عن خواطر النفس . أو بكاء الديار والوقوف على الاطلال ووصف البيد والقفار التي قطعها الى الممدوح . أو

---

(٩٢٧) كافوريات أبي الطيب ص ١٧٤

الوصف . أو الغزل والذكرى وهي على العموم مستساغة تتسم بايقاعات وجدانية ينسابُ من خلالها الى الغرض الأساس .

هجاؤه :

أنزل أبو الطيب المتنبي صواعق مُحرقة على رؤوس أولئك الذين كادوا له . أو خيبوا آماله . أو نَغَّصوا حياته . وأطلق سهاماً حامية الى قلوبهم لتكويها وتمزقها . ومما يؤاخذ عليه أنه يَسِفُ أحياناً ويفحش ويستعرض السوءات بألفاظ نابية وصريحة بلا تلميح أو ايماء . كما فعل مع ضبَّة بن يزيد العُتبي . فانه هجاه بقصيدة يَنبو بها السمع .(٩٢٨) . وكذلك مافعله مع اسحاق بن ابراهيم بن كيغلغ في قصيدة . منها هذه الأبيات التي تجاوزنا فيها عن الاقذاع المكشوف(٩٢٩) :

ومن البلية عذلُ من لا يرعوي ... عن غيّه وخطابُ من لا يفهمُ
يمشي بأربعةٍ على أعقابه ... تحت العلوج ومن وراء يُلجمُ
وجفونُهُ ماتستقرُّ كأنّها ... مطروفةٌ . أو فُتَّ فيها حِصْرِمُ
وإذا أشارَ مُحدّثاً فكأنّهُ ... قردٌ يُقهقِهُ أو عجوزٌ تَلْطِمُ
يَنْقلي مُفارقةَ الأكفّ قذالُهُ ... حتى يكادَ على يد يتعمّمُ
وتراه أصغر ماتراه ناطقاً ... ويكون أكذبَ مايكون ويقسمُ

وله أهاج في كافور الإخشيدي بعد أن تحوَّل عنه وارتحل عن مملكته . ولعل من أكثر قصائده شهرةً في هذا المجال داليتُه التي قالها بعد هروبه من مصر في ليلة عيد الأضحى . وهي بعيدة عن الفن الرفيع الذي نلاحظه في أغراضه الأخرى . منها الأبيات الآتية .(٩٣٠)

انّي نزلتُ بكذّابين ضيفهمُ ... عن القرى وعن التّرحالِ محدودُ
جودُ الرّجالِ من الأيدي وجودهمُ ... من اللّسانِ فلا كانوا ولا الجودُ
ما يقبضُ الموتُ نفساً من نفوسهم ... الاّ وفي يدهِ من نَتْنِها عودُ

---

(٩٢٨) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٤١
(٩٢٩) نفسه ٢ : ٣٨٥ .
(٩٣٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٣٧٢

رثاؤه :

شارك المتنبي في الرثاء بمجموعة قصائد . ولعلّ من اجلّها وأكثرها إثارة مرثيتين . أولاهما في جدّته التي عُنيت بتربيته . وأظلّته بعطفها وحنانها . بعد وفاة أمه وهو حدث صغير . والثانية في خولة المعروفة بست الناس أخت سيف الدولة لما كانت عليه من صفات حميدة . ولما لها من فضل وإحسان مع أهلها على المتنبي مدّة إقامته بحلب . لقد رثاها وفاء ، لأنها كانت تُمثل الفتاة العربية الأصيلة المعروفة بكرمها ونبلها وإبائها . بخلاف من ذهب الى انه كان يحبها ويعشقها .(٩٣١)

كان المتنبي يحبُّ جدّته وهي تحبه ، وحينما فارقها تألمتْ وجزعتْ وكادتْ أن تيأس بعد طول الغيبة . فكتب اليها كتاباً فرحتْ به وأكبّتْ على تقبيله حتى أصابتها الحمى من فرط السرور فماتتْ . وكان لهذه الحادثة أثر كبير في نفسه . دفعته الى نظم قصيدة تطفح بالحزن والأسى على فقيدته . منها قوله(٩٣٢) :

لكِ الله من مفجوعةٍ بحبيبها ... قتيلةِ شوقٍ غيرِ مُلْتحنها وضّما
أحنُّ إلى الكأس التي شربتْ بها ... وأهوى لمثواها التّراب وما ضمّا
بكيتُ عليها خيفةً في حياتها ... وذاقَ كِلانا ثُكلَ صاحبِه قِدْما
أتاها كتابي بعدَ يأسٍ وترحةٍ ... فماتتْ سروراً بي فمتُّ بها غمّا
حرامٌ على قلبي السُّرورُ فإنّني ... أعُدُّ الذي ماتتْ به بعدها سُمّا

أما قصيدته في خولة فهي تُعبر عن عاطفة صادقة . وحُزن عميق . وألم شديد . وقد استهلّها بمطلع رائع وجميل هو أقرب الى المديح منه الى الرثاء(٩٣٣) :

يا أخت خير أخ يابنت خير أب ... كنايةً بهما عن أشرف النسب

وفي القصيدة بيتان يُستشهدُ بهما كثيراً في مواقف الحزن حتى سارا سير الأمثال في حياة المتنبي نفسه كما يقول الدكتور طه حسين(٩٣٤) :

---

(٩٣١) انظر اسماء هؤلاء الباحثين في كتاب : الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ٧٣ ، ٧٤ .
(٩٣٢) شرح ديوان المتنبي ٢ ، ٣٦٤ .
(٩٣٣) نفسه ١ ، ٩٢ .
(٩٣٤) مع المتنبي ص ٢١٢ .

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي الى الكذبِ
حتى إذا لم يدعْ لي صدقُهُ أملاً شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرَقُ بي

ونراهُ يُعزّي سيف الدولة ويُسمّيه « فتى الفتيان » بفقيدته الغالية التي كانت فخر الفتيات الماجدات .. فهي من اللواتي يطلبن المجد والعُلى والسؤدد بخلاف اللواتي ينشدن اللذّة واللهو واللعب :

أرى الحراقَ طويلَ الليلِ مُذْ نُعيتْ فكيف ليلُ فتى الفتيانِ في حلبِ
يظنُّ أنّ فؤادي غيرُ ملتهبٍ وأنّ دمعَ جفوني غيرُ منسكبِ
بلى وحرمةِ من كانتْ مراعيةً لحرمةِ المجدِ والقُصّادِ والأدبِ
وهمُّها في العُلى والمجدِ ناشئةً وهمُّ أترابها في اللهوِ واللّعبِ
وإنْ تكنْ خلقتْ أنثى لقد خلقتْ كريمةً غيرَ أنثى العقلِ والحسبِ

وتجدر الاشارة الى أن المتنبي رثى أُخت سيف الدولة الصُغرى قبل وفاة خولة بثمانية أعوام بقصيدة مطلعها(٩٣٥) :

إنْ يكنْ صبرُ ذي الرزيّةِ فضلاً تكُنِ الأفضلَ الأعزَّ الأجلاّ

وضمن هذه المرثاة . كسائر مراثيه الأخرى . نظرات ثاقبة وخطرات قيمة مثل قوله :

آلةُ العيشِ صحّةٌ وشبابٌ فإذا وَلّيا عن المرءِ ولّى
أبداً تسترِدُّ ما تهبُ الدنـ ـيا فيا ليتَ جُودها كان بُخلا

غزله :

انصرف المتنبي منذ مطلع شبابه الى طلب المجد والعلى . والانشغال بمشكلات قومه الذين عاشوا تحت وطأة الظلم والقهر . ولم يلتفت الى الغانيات ولم يحفل بمعاشرتهن والتغزل بهنّ . وقد وضّح السبب بنفسه فقال(٩٣٦) :

---

(٩٣٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٩٦ .
(٩٣٦) نفسه ١ : ٣٧١ .

لولا العُلى لم تجبْ بي ما أجوبُ بها ... وجناءُ خرْفٌ ولا جرداكُ قيدود(٩٣٧)
وكان أطيبَ من سيفي معانقةً ... أشباهُ رونقِهِ الغيدُ الأمالِيدُ(٩٣٨)
لم يتركِ الدهرُ من قلبي ولا كبدي ... شيئاً تُتيمهُ عينٌ ولا جيدُ

ومع ذلك نجد له غزلاً رقيقا شفافاً . ولا سيما في مطالع قصائده . وقد ذهب بعض الباحثين ـ كما ذكرنا سابقاً ـ الى أنه كان يحب خولة أخت سيف الدولة . وهو في تقديرنا ظنٌّ لا يستند الى دليل ثابت ومقنع . ولعلَّ قدرته الفائقة في التحدُّث بلغة العشق والغرام هو الذي دفع هؤلاء الباحثين الى القول بأنه كان محباً عاشقاً . مثل قوله في صباه في مطلع قصيدة يمدح بها أبا المنتصر شجاع بن محمد الأزدي(٩٣٩) :

أرقُّ على أرقِ ومثلي يأرَقُ ... وجوًى يزيدُ وعبرةٌ تترقرقُ
جهدُ الصَّبابةِ أن تكون كما أرى ... عينٌ مسهدةٌ وقلبٌ يخفقُ
ما لاح برقٌ أو ترنَّم طائرٌ ... إلاَّ انتنيتُ ولي فؤادٌ شيِّقُ
خِرْبتُ من نارِ الهوى ما تنطفي ... نارُ الغضى وتكلُّ عما تحرقُ
وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذقتُهُ ... فعجبتُ كيف يموتُ مَنْ لا يعشقُ

وكان ذوق المتنبي بدوياً . يميل الى الجمال البدوي الطبيعي البعيد عن البهرجة والافتعال والزينة المصطنعة الممقوتة . مثل قوله (٩٤٠) :

ما أوجُهُ الخضرِ المستحسناتُ به ... كأوجهِ البدوياتِ الرَّعابيبِ(٩٤١)
حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ ... وفي البداوةِ حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ(٩٤٢)

---

(٩٣٧) الوجناء ، الناقة الصلبة الشديدة . الخرف ، الضامرة . الجرداء ، الفرس القصيرة الشعر . القيدود ، الطويلة العنق .

(٩٣٨) الغيد ، جمع غيداء ، وهي المتثنية ليناً . الأماليد ، الناعمات المستويات التامات . يقول ، لولا طلب العلى لم أختر مفارقة السيف وأعدل عن النساء الحسان اللواتي يشبهن رونقته في بياض البشرة .

(٩٣٩) شرح ديوان المتنبي ١ ، ٤٧٧ .

(٩٤٠) نفسه ١ ، ١١٦ .

(٩٤١) الرعابيب ، جمع رعبوبة ، وهي المرأة الطويلة الممتلئة .

(٩٤٢) يقول ، ان حسن أهل الحضارة متكلف مجلوب بالحيلة والعلاج ، أما حسن البدويات فهو خلقة ، لا يعرفن التكلف والحسن المجلوب بالاحتيال .

وصفه :

لم يكن أبو الطيب المتنبي مكثراً في الوصف . وقد جاء به في مطالع القصائد أو في ثناياها . فإنه وصف نفسه في تعاليها وشموخها وطموحها . ووصف أخلاق الناس وطبائعهم . وبعض مظاهر الطبيعة . والوقائع والحروب التي شاهدها مع سيف الدولة ...

إنَّ حظ الطبيعة قليل في شعره . مع إنه عاش في أجواء جميلة . فله أبيات في وصف بحيرة طبرية ذات الماء الهادىء والغور الدافيء(٩٤٣) . وكذلك وصف شعب بوّان الذي يقع في أحضان الطبيعة الساحرة . فها هو ذا يصف تساقط قطرات الندى من أغصان الاشجار على اعراف الخيل وهو سائر في هذا الشعب وكأنّها حبّاتُ جمانٍ بديعة . وظلال هذه الأشجار دنيّة حرّ الشمس ما خلا أقباس من الضياء تطالعه كالدنانير ولكنها لا تُمسَكُ باليد . ويُسحره منظر الثمار المتدلية الجنية وصوت المياه المنسابة على الحصى الذي يشبه صوت الحلي في معاصم الحسان(٩٤٤) :

غدونا تَنفُضُ الأغصانُ فيها ... على أعرافها مثل الجُمانِ
فسِرْتُ وقد حجبنَ الشمس عنّي ... وجئنَ من الضِّياء بما كفاني
وألقى الشرقُ منها في ثيابي ... دنانيراً تفِرُّ من البنانِ
لها ثمرٌ تشيرُ اليكِ منها ... بأشربةٍ وقد سَكِرَتْ بلا أوانِ
وأمواهٌ تصِلُّ بها حصاها ... صليلَ الخلي في أيدي الغواني

ومن بارع وصفه الذي تناقلته الكتب الأدبية وصف الحمى التي شبهها بالفتاة الحسناء التي لا تخلفُ مواعيد زيارتها في الليل(٩٤٥) :

وزائرتي كأنّ بها حياءً ... فليس تزورُ إلّا في الظلام
بذلتُ لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتتْ في عظامي
كأنّ الصبحَ يطردها فتجري ... مدامعُنا بأربعةٍ سجام
أراقبُ وقتها من غير شوقٍ ... مراقبةَ المشوقِ المستهام
ويصدقُ وعدها والصّدقُ شرٌّ ... إذا ألقاكَ في الكُرَبِ العظام

(٩٤٣) ينظر شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٣٦ .
(٩٤٤) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٤٨٢ .
(٩٤٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٤٠٠ .

اما الوقائع والحروبُ فكان بارعاً في وصفها . مجيداً في تصويرها ونقلها للقاري،(٩٤٦) . مثل قوله في وصف الفرسان الشجعان الذين تراهم قليلين في عددهم . كثيرين عند لقاء الأعداء (٩٤٧) :

سأطلبُ حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طولِ ما التثموامُرّدُ
ثقالٌ اذا لاقوا خفافٌ اذا دُعُوا كثيرٌ اذا شدُّوا قليلٌ اذا عُدُّوا

وانظر الى هذا الجو الرائع الذي أبدع المتنبي في تصويره في لوحة كاملة تشغل العين والسمع والنفس(٩٤٨) :

اتوكَ يجرُّونَ الحديدَ كأنَّهمْ سروا بجيادٍ ما لهنَّ قوائمْ
إذا برقوا لم تُعرفِ البيضُ منهمُ ثيابهمُ من مثلها والعمائمْ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ وفي أذنِ الجوزاءِ منه زمازمُ

فخره :

كان المتنبي معتداً بنفسه . فخوراً . لا يطأطيء رأسه لأحد مهما كانت منزلته . ويلاحظ القاريء بوضوح هذه الظاهرة في شعره . ولا سيما في مديحه . كي لا يقال انه سائل ذليل أو محروم هو أقل منهم قدراً . وقد ذهب أحد الباحثين الى انه « كان ناقماً على الناس . لأنه يحبُّ نفسه . ولذا كان يُصور نفسه دائماً بصورة المحسود المغبون . والناس من حوله حسدة ظالمون . أقزام يقحمون أنفسهم في مواكب العمالقة (٩٤٩) » . ولعل هذه النقمة ـ كما نرى ـ متأتية نتيجة انتكاسه في الحصول على مطالبه التي كان يسعى من أجلها ولم ينلها . إضافة الى أنه كان يرى أناساً لا يضاهونه في شخصيته وعلمه ومؤهلاته قد أخذوا مواقع متميزة في الحياة لا تليق بهم .

افتخر المتنبي بنفسه كثيراً مثل قوله(٩٥٠)

لا بقومي شرُفْتُ بل شرفوا بي وبنفسي فخرْتُ لا بجدودي
إنْ أكنْ مُعجباً فعُجْبُ عجيبٍ لم يجدْ فوقَ نفسهِ من مزيدِ

---

(٩٤٦) ينظر فصل «شعر الحرب عند المتنبي» في كتاب شعر الحرب في ادب العرب ص ٢٦٢-٢٨٩.
(٩٤٧) شرح ديوان المتنبي ١ : ٣٣٧ .
(٩٤٨) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٧٢ .
(٩٤٩) الشعر العربي بين الجمود والتطور ص ١٤٢ .
(٩٥٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٠٨ .

وافتخر بعلو همته ورفعة مكانته(٩٥١) :

اذا غامرتْ في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النُّجوم
فطعمُ الموت في امر صغير ... كطعم الموت في امر عظيم

وتباهى بعلمه وادبه(٩٥٢) :

انا الذيْ نظر الاعمى الى ادبي ... واسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ
اناْمُ ملءَ جفوني عن شواردها ... ويسهرُ الخلْقُ جرّاها ويختصمُ

واشاد بقوته وجلادته وكثرة صبره(٩٥٣) :

اطاعنُ خيلاً من فوارسها الدهرْ ... وحيداً وما قولي كذا ومعي الصّبرُ
وأشجعُ منّي كلَّ يوم سلاحتي ... وما ثبتتْ الاّ وفي نفسها أمرْ
تمرستُ بالآفات حتى تركتُها ... تقول امات الموتُ ام ذُعِرَ الذُّعر

لقد كثر زهوه . واسرف في التحدث عن نفسه . واشتد غروره وتعاليه وشعوره بالعظمة والقوة . حتى انه قال مخاطباً سيف الدولة(٩٥٤) :

وما انا إلاّ سمهريٌ حملتهُ ... فزيّنَ معروضاً وراع مُسَنَّدا
وما الدّهرُ الاّ من رواة قلائدي ... اذا قلتُ شعراً اصبح الدّهرُ مُنْشِدا
فسار به من لا يسير مشمراً ... وغنّى به من لا يغنّي مُغرّدا

أجزني اذا أنشدت شعراً فانّما ... بشعري اتاك المادحون مُزَدّدا
وذغ كلّ صوت غير صوتي فانني ... انا الصائحُ المكحيُّ والاخرُ الصّدى

حكمه :

عاصر المتنبي فترة عصيبة من حياة امتنا في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة . وقد اكتسب تجربة طويلة من مشاهدته للناس وتأمله في الاحداث . وكانت حصيلة تلك التجربة . الى جانب ثقافته العميقة . حكماً بليغة سارت على الالسنة حتى قيل : « ماجتمع اثنان يتحدثان الاّ كان المتنبي ثالثهما » .

---

(٩٥١) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٧٨
(٩٥٢) نفسه ٢ : ٢٩٠
(٩٥٣) نفسه ١ : ٣٥٣
(٩٥٤) نفسه ١ : ١٩٣ .

جاءت حكمه ضمن القصائد متلاحمة مع معانيها . لا يحسُّ القارئ بأنها غريبة او دخيلة . بل يراها ركائز جيدة تدعم معانيه وافكاره . واليك من ابياته التي اجراها مجرى الامثال في الحكم والاخلاق والتربية :(٩٥٥)

أعزُّ مكانٍ في الدُنى سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزمان كتابُ

وقوله :

وكلُّ امرئٍ يُولي الجميل محبَّبٌ وكلُّ مكانٍ ينبتُ العزَّ طيّبُ

وقوله :

اذا انتَ اكرمتَ الكريمَ ملكتهُ وان انت اكرمت اللئيم تمرّدا

وقوله :

ومنْ يكُ ذا فمٍ مُرٍ مريضٍ يجدْ مُرّاً به الماءَ الزُلالا

وقوله :

خليلكَ انتَ لامَنْ قلتَ خِلّي وانْ كثُرَ التجمُّلُ والكلامُ

وقوله :

مَنْ يهُنْ يسْهُلِ الهوانُ عليهِ مالجرحٍ بميّتٍ إيلامُ

ومن انصاف الابيات قوله(٩٥٦) :

مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ
اذا عظُمَ المطلوبُ قلَّ المساعِدُ
أنا الغريقُ فما خوفي من البَلَلِ
ليس التكحُّلُ في العينينِ كالكَحَلِ

ونجدر الاشارة الى ان المتنبي لم يكن فيلسوفاً . وانما له نظرات عميقة وحكيمة نظمها في اسلاك متينة وجذابة . اما ماذهب اليه ابو علي محمد بن الحسن الحاتمي ان حكمه كلها مقتبسة من ارسطو . فاننا لانتكر تأثره بهذا الفيلسوف في حكمه التي تسربت الى اللغة العربية عن طريق الترجمة . ولكننا لانستطيع ان نُجرّد الحكم كلها منه . فهو لبيبٌ فطنٌ . له تجاربه الخاصة . وقد تلتقي مجموعةٌ من هذه التجارب مع تجارب الاخرين .

(٩٥٥) ينظر شرح ديوان المتنبي ١ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٩١ ، ٢ ، ١٦٢ ، ٣٤٠ ، ٣٥٧ .

(٩٥٦) ينظر شرح ديوان المتنبي ١ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٣ ، ٦٥ ، ٧٣ .

مميزات شعره :

يعدُّ ابو الطيب المتنبي من فحول الشعراء . وفرسان البيان . الذين انجبتهم الامة العربية . شغل الباحثين والنقاد في عصره وبعده . وصدق ابن رشيق في قوله : « ملأ الدنيا . وشغل الناس(٩٥٧) » . ولا عجب حين قال المتنبي(٩٥٨) :

وتركُك في الدنيا دوياً كأنّما تداول سمع المرء انملهُ العشرْ

انه حقاً ترك دوياً . وخلق ضجة . واكبر شاهد على ذلك وفرة شروح ديوانه . وكثرة الدراسات والبحوث التي كتبت في سيرته وشعره بين مادح وقادح . وحسبنا قول ابي منصور الثعالبي : « ليس اليوم مجالس الدرس . اعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس . ولا اقلام كتاب الرسائل . اجرى به من السن الخطباء في المحافل . ولا لحون المغنين والقوالين . اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين . وقد الفت الكتب في تفسيره . وحلّ مشكلة وعويصه . وكُسّرت الدفاتر على ذكر جيدة ورديئة . وتكلّم الافاضلُ في الوساطة بينه وبين خصومه . والافصاح عن ابكار كلامه وعونه(٩٥٩) . وتفرقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه والنضح(٩٦٠) عنه . والتعصب له وعليه . وذلك اول دليل دلّ على وفور فضله . وتقدم قدمه . وتفرده عن اهل زمانه . بملك رقاب القوافي . ورقّ المعاني . فالكامل من عدت سقطاته . والسعيد من حُسبتْ هفواته . وما زالت الاملاك تهجى وتمدح(٩٦١) » .

كان المتنبي ذكياً فطناً ذا ثقافة عالية(٩٦٢) . استطاع ان يجمع في شعره بين الصنعة والطبع . وان يوفّق بين الاحساس والخيال . وان يوائم بين العلم والتجربة . ويلائم في اغلب شعره بين المطلع والتخلص والخاتمة . ومن اظهر مزايا شعره الشرح والتوليد . والميل الى الاسلوب الخطابي . والمبالغة التي تخرج احياناً الى المستحيلات . قال ابن رشيق القيرواني : « فاذا صرت الى ابي الطيب صرت الى اكثر الناس غلواً . وابعدهن فيه همّةً . حتى لو قدّر ماأخلى منه بيتاً واحداً . وحتى تبلغ به الحال الى ماهو عنه غنى . وله في غيره مندوحة . كقوله :

---

(٩٥٧) العمدة ١ : ١٠٠

(٩٥٨) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٥٢

(٩٥٩) العون : المتزوجات من النساء

(٩٦٠) النضح عنه : اراد الدفاع عنه

(٩٦١) يتيمة الدهر : ١ : ١٢٧ .

(٩٦٢) ينظر : ثقافة المتنبي واثرها في شعره ص ٥٥ ـ ٣٦٧

يترشفن من فمي رشفاتٍ هنّ فيه احلى من التّوحيد

وان كان له في هذا تأويل ومخرج بجعله التوحيد غاية المثل في الحلاوة بفيه . وقوله :

اذا قلته لم يمتنعْ من وصوله جدارٌ مُعلّى او خباءٌ مطنب

فما وجه الخباء المنطب بعد الجدار المنيف ؟ بينا هو في الثريا صار في الثرى ! وانما اراد الحاضرة والبادية(٩٦٣) » .

ومن مميزات شعره التماسك الشديد . والترابط الوثيق . وتسلسل الافكار وتناسقها وتأييدها بالحجج المنطقية والبراهين العقلية . مثل قوله معاتباً سيف الدولة :(٩٦٤)

يا أعدل الناس الاّ في معاملتي فيك الخصامُ وانت الخصمُ والحكمُ
أعيذُها نظراتٍ منك صادقةً أنْ تحسبَ الشحمَ فيمن شحمُه ورَمُ
وما انتفاعُ اخي الدنيا بناظره اذا استوتْ عندهُ الانوار والظُّلَمُ

ويلاحظ انه كان يميل احياناً الى التعقيد . واستخدام الالفاظ الغريبة . والتصرف في اللغة . واستعمال مصطلحات المنطق والفلسفة . واخذ معاني السابقين وصياغتها باسلوبه الخاص(٩٦٥) . واللعب بالالفاظ مثل قوله مخاطباً كافوراً الاخشيدي :(٩٦٦)

جرى الخُلْفُ الاّ فيك أنكَ واحدٌ وانّك ليثٌ والملوك ذئابُ
وأنّك انْ قُوّيتَ ضُعّفَ قارئٌ ذئاباً ولم يخطئ فقال ذبابُ

اما موسيقى شعره فكانت رائعاً . وقد جاء ذلك من اختياره الجيد للاوزان والقوافي وملاءمتها للالفاظ والمعاني . الى جانب استخدام بعض الالوان البديعية مثل التصريع والجناس وحسن التقسيم ... فمن شواهد الجناس قوله(٩٦٧) :

---

(٩٦٣) العمدة : ٢ : ٦٣

(٩٦٤) ينظر ديوان المتنبي ٢ : ٣٦٠

(٩٦٥) ينظر الفصل الذي عقده الثعالبي بعنوان « صدر من سرقات المتنبي » في كتابه يتيمة الدهر ١ : ١٤٨ ـ ١٥٤ . و « سرقات المتنبي » في كتاب الوساطة للجرجاني ص ٢١٦ ـ ٤١١ .

(٩٦٦) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٣٩

(٩٦٧) شرح ديوان المتنبي ١ : ٤١٨

مُنعَّمةٌ ممنّعةٌ رواحٌ يُكلِّفُ لفظها الطيرَ الوقوعا

ومن سياق العدد قوله(٩٦٨) :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرُمحُ والقِرطاسُ والقلمُ

---

(٩٦٨) نفسه ٢ ، ٣٦٢